لقد رأى من آيات ربه الكبرى !!

إبراهيم مصطبح

التحقيق

لكن التحقيق الذى يقبله المنطق والعقل أن قوله ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى . . أى أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه . . وهى التى تقف العقول فيها وقفة ، لأنها موصوفة من الله بأنها الآية الكبرى ! !

الاسراء يتكلم عنه القرآن فيقول : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا . من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا . إنه هو السميع البصير . هذا النص القرآنى هو عمدتنا فى توثيق هذا الحدث .

وحين يجئ النص القرآنى يحدث ، فليس لنا الا أن نؤمن به لأنه ورد من الله . وليس لعقولنا أن تبحث الجارى فى قوانين الأرض . وقوانين البشر لتحاول أن تفهم قوانين الله . ولكن مادام الله هو الذى قال . فالأمر الذى يجب على المؤمن هو أن يسلم به . وبعد ذلك على عقله أن يبحث فى قياسات هذا التسليم أو فى مبررات هذا التسليم فيجد المبرر الأول للتسليم أنه آمن أولا بالله .

فالانسان أول ما يدخل على الدين يؤمن إيمان القمة بربه . بالله وبعد ذلك يطلق عن الله . إذن فتلقيه عن الله مشروط بأنه آمن بالله الذى يتلقى عنه . فما عليه بعد ذلك الا أن يتلقى الكلام أصدر من الله أم لم يصدر ؟ ! !

واذن فعملة إيمان المؤمن بأى حكم أو بأى حدث صادر من الله هو توثيق صدوره من الله . بعد أن يوثق صدوره من الله ما عليه الا أن يؤمن به وبأنه حدث ، وبعد ذلك لعقله أن يجول بطاقاته حتى يمكن أن يؤنس عقله بأن ذلك الحدث يكون .

وفى هذا المجال يقرر الامام الشيخ محمد متولى الشعراوى :

إن حدث الإسراء استهله الله سبحانه وتعالى بكلمة – سبحان – ومعنى سبحان أول ما تقع على الذهن تعطى الانسان طاقة قوية تبعد عنه كل شبه المقارنة . التى تأتى بين قانون المادة الأرضى الانسانى البشرى . وبين قانون الله . فمعنى سبحان الله أن الله منزه فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله فإذا صدر فعل قال الله : إنه صدر منى . فيجب أن أنزهه أنا عن قوانين البشرية والا اخضع فعل الله إلى قانون فعل .

ولذلك استهل السورة بقوله : « سبحان » حتى يكون أول مايقرع الانسان لذلك الحدث العجيب الغريب الذى تقف فيه العقول « سبحان » أى تنزيه للفعل عن أفعالكم ! ! أى تنزيه لفعل الله عن أفعال البشر ! ! ومعنى ذلك أن قانون الله فى الفعل ليس كقانوننا . فى الفعل .

ثم بعد ذلك « الذى اسرى » بعبده . فالله هو الذى أسرى ، ومحمد ﷺ . هو الذى أسرى به . واختار الله لفظا يعطى حيثية تلك التجربة . وهو « بعبده » .

وبعد ذلك بداية الإسراء « من المسجد الحرام » ونهايته « إلى المسجد الأقصى » ثم قال العلة لنريه من آياتنا . ثم بعد ذلك قال العلة الدافعة لكل هذا لماذا نريه من آياتنا ؟ إنه هو السميع البصير .

سمع لماذا ؟ وبصير بماذا ؟ كان من الممكن أن يقول . على نسق البشر . بعد أن يريه الآيات : إن الله على كل شئ قدير . إن الله وهاب .

أما أن يأتى بأنه « هو السميع البصير » فهذا ليدلك على العلة الحقيقية التى استوجبت أن يسرى سبحانه وتعالى برسوله ﷺ فقد سمع الله الايذاء الذى أوذى به رسوله ﷺ وقد رأى الله مايتعرض له من الجفاء والاستهزاء ومن السخرية ومن الإهانة . كل ذلك بمرأى ومسمع من الله . فحين رأى الله ذلك وسمع . أراد أن يريه الآيات فأسرى به . (. . من المسجد الحرام)

وبعد ذلك ننتقل الى مشهد آخر من مشاهد هذا الحدث الجلل . وهو : لماذا الإسراء من المسجد الحرام ؟

يقرر الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى رداً على هذا السؤال : أن الكعبة كانت انطمرت كيت من بيوت الله . ثم بعد لها هذا المظهر . وصيت بيت العرب . وشحنت بالأصنام . هذا شئ . وبيت المقدس . له قدسية مع موسى وعيسى . وأنبياء بنى اسرائيل .

ورسول الله ﷺ . لم يبعث لقومه فقط أى لم يخص العرب فقط كما يريدون هم أن يقولوا ! ! إنما جاء عالميا . فاسرائه من مكة إلى بيت المقدس كأنه أدخل بيت المقدس فى مقدسات دينه الجديد .

وهذه العملية توضح أن دينه مهيمن على كل البقع . وكل مقدسات البقع . وكذلك أيضا الجهات إليه أولا . فلا يأتى واحد ويقول : أنتم لكم دينكم . ونحن لنا ديننا . . لا . صحيح دينا جاء فى مكة ولكنه مهيمن على سائر الأديان . ورسولنا مهيمن على مقدساتنا . وهذه المقدسات داخلة ايضا فى مقدساتنا . وأصبح بيت المقدس فى مقدساتنا لأنه صار منتهى مسرى النبى . وبداية معراجه ﷺ .

إذن فالأسراء آية أرضية أمكن أن يقام الدليل عليها . وإذا ما أمكن إقامة الدليل المادى الوثق بواسطة البشر عليها . فهمت العقول أولا أن المسافة قد اختصرت لرسول الله ﷺ . وأن قانون الزمن قد ألغى عنده اذن فقد خرق له الناموس .

حديث قدسى

أنا أهل أن أتقى

عن أنس بن مالك رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية : « هو أهل التقوى وأهل المغفرة » .

فقال : قال الله عز وجل : أنا أهل أن أتقى . فلا يجعل معى اله آخر . فمن اتقى أن يجعل معى اذا آخر . فأنا أهل أن أغفر له .

فاذا عرفنا أن الناموس خرق له في أمر مادي نعلمه ونستدل عليه بعقولنا ، فإذا حدثت رسول الله ﷺ بعد ذلك أن قانون السماء قد خرق له فاحترقه . فإن الممكن للعقل أن يساءل بأن الذي خرق له الناموس فيما نعلم ، وفيما استدللنا عليه قادر ، على أن يخرق له الناموس فيما لانعلم .

إذن فآية الإسراء كانت إيمانا لعملية الإيمان بالمعراج . فالله الذي خرق القانون لمحمد ، في المسافة والزمن ، خرق له القانون في المعراج . للسموات السبع ، وفي لم يكن أحد صعد إلى سدرة المنتهى ، أرقى الطريق اليها ، فلا يمكن أبدا أن يقام الدليل من المخلوقين الذين يسمعون ذلك الا بصفة أمر حس له وهو الإسراء .

ولذلك كانت آية الاسراء إيمانا للعقول بإمكانية الإيمان بما يحدث به الرسول ﷺ ، لأنه انتقل الى السماء بقانونه ، لا بالقانون الذي نقله من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى في ذلك الزمن الوجيز .

وقد وصف المسجد ووصف مال الطريق من بيت المقدس إلى مكة ، كل هذا يؤنسنا بأن الرسول ﷺ ، حين تحدثنا عن المعراج ، وعن مراتبه في المعراج يكون صادقا فيما حدث به ، ونلاحظ أن القرآن حينما تعرض لآية أرضية وهي الإسراء قال : سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه ،

. فكأن الفعل هنا إيراء وماهي الارادة :

الإيراء

الايراء : أن نجعل من لايرى ، يرى ، وذلك إما بتحويل المرئي إلى قانون المرئي أو بنقل المرئي لأن ينقد إلى قانون المرئي .

ولنأخذ مثلا توضيحيا لذلك : هناك الميكروب الذي يكتشف ، فالميكروب كان موجودا قبل أن يكتشف وليس معنى اكتشافه أنهم أوجدوه ، ولكنه كان موجودا دون أن يكون للحس طريق إليه .

فلما اخترعت المجاهر – الميكروسكوبات – أمكن للذي لايرى وهو « الميكروب » أن يرى ، فحصلت ارادة الميكروب الذي لم يكن يرى ، . يرى لماذا ؟ بعملية تحويل وهي أننا أتينا بعدسة تكبر لنا الأشياء فما لم يكن يرى أولا . أصبح يرى الآن .

ومثلا : المريض يبصره يذهب إلى الطبيب ، الطبيب يعطي له نظارة ، والنظارة تكبر له الأشياء ، فما لم يكن يراه أولا ، رآه ثانيا ، وقد يجرى له عملية جراحية في عينه ، بحيث لا يحتاج إلى هذه النظارة ، فإذا لم يحتج إلى هذه النظارة ، أيرى ، يقال : رأى هو .

إذن : فالارادة إما أن تكون بتغيير ماهيه إلى قانون المرئي فيرى ، وإما بإعطاء شيء في المرئي ليرى بذاته . فلما جاء حادث الإسراء قال : لنريه ، لأن محمدا ﷺ على الأرض ، ويشرى بقانون البشرية وقانون الإبصار فيه خاضع لقانون الضوء ، وقانون الضوء لايختلف فيه أحد .

فإذا كانت هناك آيات من غيب الله في الأرض فلابد أن يحدث له ، ارادة ، لأنه بطبيعته لايرى هذه الأشياء ، فالارادة إذا كانت هناك في الأرض ، لكن حينما ينتقل الرسول ﷺ إلى الملأ الأعلى ، ويلتقي بالأنبياء الذين ماتوا قبله ، ويلتقي بالملائكة ، فقد تغير شيء في ذاته ، ﷺ كأنه طرح البشرية ، وأخذ شيئا من الملائكية التي ترى بنفسها .

فلما صعد إلى السماء قال : ماذا قال ؟ ، لقد رأى ، ولم يقل : أوينباه ... ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

ففي الإسراء قال : أريناه ، وفي آيات السماء ... في المعراج قال : رأى .. ويرى ، فكان الرسول في بشريته في الأرض محتاجا إلى أن يعدل القانون في فاته بالنسبة للرائي والمرئي ، وأما في السماء فقد أخذ وضعا آخر ، هذا الوضع الآخر : أصبح بذاته يرى ، لأنه أصبحت هناك ملائكية ، فالبشرية طرحت في الأرض ، والملائكية أصبحت هي المسيطرة ، على رسول الله ، فأصبح يرى ، لكن في الأرض كانت ارادة .

وننتقل مع هذه الرحلة المباركة ، إلى قوله سبحانه : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » . . فكان ذلك اخبارا من الله ، وليس اخبار محمد ، حيث لم يقل محمد « فهم » ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى .

ويشير الامام الشعراوي : أن الكبرى هنا – المصدوق حين يتكلمون يجعلونها وصفا للآيات فهو قد رأى آيات ربه . الآيات الكبرى العظيمة – لكن التحليق الذي يقبله المنطق والعقل . . أن قوله : لقد رأى من آيات ربه الكبرى ، أي أنه رأى الآية الكبرى من آيات ربه .

فكأن آيات الله التي حدث عنها هي آيات من آيات الله ، وحسبها عظمة وعجبا أن تنسب إلى الله . لكن فيه آية كبرى ، وهي التي تلف العقول فيها وتقف ، لأنها إذا كانت في الآيات العادية ، وقفت هذه الوقفة ، فما بالكم بها مع الآية الموصوفة من الله بأنها الآية الكبرى .

أي لقد رأى الكبرى من آيات ربه ، فكأن الكبرى هي المفعول – وليست وصفا لآيات . ولكن لقد رأى من آيات ربه . ماذا رأى ؟ رأى الآية الكبرى التي هي أعلى من هذه الآيات . لاشك أن جبريل كان معه في الأرض ، كان يشاركه هذه الرائي ، وفي السماء أيضا كان معه جبريل ، لكن في الآية الكبرى ، كانت المرحلة الأخيرة ، التي لم يقدر عليها جبريل ولا أحد من الملائكة وانفرد بها رسول الله ﷺ .

وهي منطقة أخرى بعد سدرة المنتهى ، فينتهي حد جبريل ، ثم بعد ذلك يرتج برسول الله في سبحات النور ، ولم يكن جبريل معه ، وهذا دليل على أن محمدا ﷺ ، قد ارتقى ارتقاء آخر ونقل من ملائكية لاقدرة لها ما وراء سدرة المنتهى إلى شيء من الممكن أن يتحمل إلى ماوراء سدرة المنتهى ، دون مفاجأة جبريل عليه السلام

إذن : فمحمد كان بشرا في الأرض مع جبريل ، وبعد ذلك كانت له ملائكية مع الرسل ومع جبريل في السماء ، وبعد ذلك كان له وضع آخر ، ارتقى به عن الملائكية حتى إن جبريل نفسه يقول له أنا لو تقدمت لاحترقت .. وأنت لو تقدمت لاحترقت . فنهاية محمد حصل فيها شيء من التغير ، الذي يناسب ذلك المثل الأعلى ، فجبريل ملائكيته لايستطيع أن يخترق وألا أحترق ، أما هو فيستطيع أن يخترق .

وعلى هذا فدلالة أشياء حدثت لمحمد ، بشرية في الأرض معهودة بالمثل ، بعد ذلك ملائكية في السماء قبل سدرة المنتهى ، ثم بعد ذلك ملائكية فوق الملائكية ، وهي التي كانت بعد سدرة المنتهى يتصور فيها ، قاب قوسين أو أدنى ، ويتعرض فيها إلى خطاب الله ورأى ربه سبحانه ، جل في علاه . □

العمل حياة ..

العمل سلوك يستمد وجوده من حرص الإنسان على الحياة . . وهو نبض الحياة والطريق الصحيح لبناء الإنسان وبناء الدولة القادرة على مواجهة الغزو الحضاري

ورغب العمل شرفا أيضا أنه يضع أقدامنا على أول طريق الحياة الطيبة التي يتذاق إليها كل منا لنفسه وأهله وأمته ، وفي هذا المجال نقرأ قول الله تبارك وتعالى : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

والحياة الطيبة هي حياة الراحة الناتجة عن العمل بطاعة الله ورسوله والانشراح بها انها حياة الرزق الطيب ، إنها حياة القناعة . إنها السعادة وليس هناك أسعد من حياة تقوم على التقوى أو الاستقرار في عمل الخير يبذله المؤمن من أجل النفس ومن أجل الآخرين والعمل الذي يباركه الله تعالى هو العمل الصالح الذي يراقي شريعته على شريطه أن يكون خالصا لوجهه الكريم .

ويروى في هذا أن رجلا سأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله إني أقف المواقف أريد وجه الله ولكني أحب أن يرى موطني فلم يرد عليه ﷺ حتى نزل قول الله تعالى : « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا » .

والعمل الذي يباركه الله تعالى لا يتغير بمكان ولازمان فكما يكون في المسجد يكون في الشارع . يكون في المصنع . يكون في المؤسسة . . يكون في كل قطاع من قطاعات الحياة . التي لها صلة بالانسان والأخذ بيده نحو الافضل والأحسن . .

ولقد كان نبينا محمد ﷺ هو القدوة الصالحة في مجال العمل . أرأيتم كيف رعى الغنم ؟ أرأيتم كيف باشر التجارة ؟ أرأيتم كيف اسهم في حفر الخندق في غزوة الأحزاب ؟ ثم أرأيتم كيف شارك في بناء مسجد المدينة بعد هجرته من مكة ليجتمع فيه المسلمون ويتدارسوا أحكام دينهم مما جعل أصحابه يتسابقون إلى العمل وعلى أفواههم هذا النشيد :

ان قعدنا والنبي يعمل – فذاك منا العمل المضلل . . وفي مجال دعوته ﷺ إلى العمل نجده يقول :

« لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلا فيسأله أعطاه أو منعه » ويقول : إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة يغرسها النخلة التي تقطع من الأم فليغرس أو كل عود يقطع من شجرته فيغرس – فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر ، وقد روى أنه ﷺ قبل يدا ورمت من كثرة العمل وقال : « هذه يحبها الله ورسوله » .

فأيها الراغبون في حياة العزة والكرامة . . في حياة التطور والرخاء ليس أمامكم الا أن تعملوا في صدق واصرار لكي تحققوا أمر الله لكم ، وقال إعملوا . . اعملوا في البر . . واعملوا في البحر . وفي الأرض والسماء . . واعملوا للدين والدنيا ، فما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا والله لايضيع أجر من أحسن عملا .

محمد ابراهيم الخطيب